

في الأدب الإنجليزي الحديث

د. ه. لورنس

للاستاذ عبد الحميد حمدي

٣ - السبيل إلى فهم فلسفته

يمجز الكثيرون - ومن بينهم كبار النقاد ومشهورو الكتاب - عن فهم لورنس وفلسفته ، وما ذلك إلا لأن سلاحهم هو العقل وحده ، وعمادهم هو المنطق والقوانين المنطقية . فأول ما يجب أن يراعيه دارس لورنس هو أن هذا الكاتب ليس مما يسهل فهمه بالعقل ، وإنما إلى جانب ذلك يجب أن يستعين القارئ بخياله وتجاربه وشعوره الجسدي . فلورنس قبل أن يصل إلى آرائه وقبل أن يستخلص فلسفته لم يلجأ إلى العقل أو التفكير بل كان عماده الترائز الطبيعية ووحية الرغبات الجسمية . والحقيقة أن لورنس رجل نحره في دمناء ، وفلسفته تختلف عن فلسفة كل من سبقه من الكتاب والشعراء ، فهي ليست بناءً شاعراً من العقل والتفكير ، وإنما هي تجربة أو سلسلة من التجارب أحسها صاحبها في دمه ثم نقلها إلينا في صورة كلمات . وواجبنا نحن عند دراستها أن نرد هذه الكلمات إلى أصلها فتحسها كتجربة تجري في دمناء ، كما كان الحال مع صاحبها في أول الأمر ، فتجنن إذ نقرأ لورنس فإنما نصحبه في رحلة طويلة في عالم جديد علينا .

ولما كانت كتب لورنس هي عبارة عن قصة روح تجول في العالم الإنساني تبرز ما في المجتمع من عيوب ، وتحذر الناس من تيار الدنية الحديثة الذي قد يجرهم إلى هاوية لا يعرف لها قرار ، فواجبنا عند دراسة لورنس أن ندرس تجاربه التي على ضوئها وصل هو إلى آرائه وأفكاره التي ضمنها كتبه . ويجب أن نذكر دوماً أن لورنس كان فتناً قبل أن يكون كاتباً ، حتى نفهم أن تجاربه وحدها ما كانت لتكفيه ، فعمد إلى توسيعها والتعمق فيها ، بل والتفاني في وصفها أحياناً . ومن ثم كانت شخصيات رواياته حقيقية وغير حقيقية . فهي حقيقية لأنها منقولة من الحياة وأصلها في الحياة ، وغير حقيقية لأنها تأتي من الأعمال ما قد يختلف عما تأتيه ميلاؤها في الحياة . وقد كانت هذه

الظاهرة أو هذا التناقض سبباً في فشل كثير ممن حاولوا دراسة لورنس ، لأنهم لم يحسبوا لهذه النقطة حساباً ويختلف لورنس عن غيره من كتاب عصره في توجيه اهتمامه إلى اللاشعور أكثر منه إلى الشعور . ومن ثم كان الاختلاف البين بين شخصيات رواياته وبين شخصيات الروايات الأخرى . فالأولى تعمل مدفوعة بقوانين أعمق من قوانين شخصيات الروايات الثانية ، فهي أكثر حساسية وطواعية لقانون اللاشعور من الأخرى ، وكان هذا الاختلاف مصدر صعوبة كبيرة في فهم ما يرى إليه لورنس في بعض كتبه . ولم ينب عن الكاتب مبلغ ما سوف يلاقه قراؤه من المناء في فهم هذه الكتب فعمد إلى بسط آرائه وشرحها بطريقة مباشرة لا رموز فيها ولا أحاجي في بعض كتبه التي من أهمها كتاباه عن تحليل اللاشعور وكتابه الذي يحتوي على مقالات متنوعة ؛ وأخيراً كتابه الذي طبع بعد وفاته واسمه « فينكس » ومن أكبر الصعاب التي صادفت لورنس أنه قام بيشير بدین الجسم وبيت الدعابة له بين قوم عبدوا العقل ونسبوه إلهاً عليهم ، وكان لزاماً عليه أن يأتي بالمعجزات قبل أن يستطيع تحويل الناس عما يمتدنون إلى ما يمتقده هو . رأى لورنس هذه الصعوبة ، ولكنه كان لا يعرف لليأس معنى ، ولا كان الفشل يعرف له طريقاً رغم أنه كان يصدم المرة بعد المرة ، وما ذلك إلا لأنه كان واثقاً من صدق رسالته ، ومن الفوز في النهاية . لقد شعر في داخلية نفسه بالصراع العنيف بين الجسم والعقل ، كل يريد أن يبسط سلطانه وسيطر على الآخر . وهذا هو السبب في أن القارئ المدقق يجد دائماً في كل شخصية من شخصيات روايات لورنس تيارين من الحياة : تيار الحياة العادية وتيار الحياة الرمزية ، بمعنى أن لورنس كان يرى في كل شخصية قوتين : قوة العقل التي تحاول أن تجعل كل شيء يبدو صحيحاً ، حتى ولو عاد على صاحبها بالضرر ، والقوة الثانية هي قوة الجسم الفريزية ، وهذه لا تتحذع ولا تتحذع ، فما يعود على صاحبها بالضرر تجنبته ، وبالعكس تقبل على ما فيه مصلحة صاحبها لا يؤثر فيها مؤثر ولا يثنيها عن طريقها مغرم من المفريات الصناعية . ولقد لاحظ لورنس على حياتنا الحديثة أننا بدأنا نضرب بقوة الجسم ورغباته عرض الحائط ، وبذلك نهدم السبيل لسيادة العقل وسيطرته علينا . ومن ثم كان الصراع العنيف الذي يجري في داخل شخصيات لورنس التي ترى إلى

التراب . ففي القصة القصيرة المسماة : « شمس » ، ترى المرأة وقد استلقت عارية ، تهب نفسها للشمس ، لأنها شعرت برغبة جسمها في ذلك ، وبذلك تتغفل الشمس في جسمها وتشعر المرأة بالحياة قد دبت فيه ، وتسير ، وقد امتلأت حيوية رجاءاً . لم تسأل المرأة نفسها : لم يطلب جسمها الشمس ، ولم رغب فيها ، لأن هذه الأسئلة هي من صنع العقل وابتكاره . لم تفكر المرأة في العقل ولا في أسئلته أو منطقته ، وإنما حصرت كل تفكيرها في جسمها ، فعمدت إلى إعطائه ما يطلب ، حتى إذا فلتت شعرت كأن ينبوع الحياة قد تفجر من جسمها من جديد ، بعد أن جف ماؤه أو كاد ... ولقد اختار لنا لورنس هذه المرأة مثلاً لمحتذيه ونقلده ، بعد أن رأى الناس قد أعطوا العقل أهمية لا يستحقها ، ورفعوه إلى مكانة ما كان له أن يرتفع إليها . لقد أولوا أسئلته أذناً صاغية ، وكان من أثر ذلك أن تحكم فيهم العقل وتسيطر عليهم ، وكل ذلك على حساب الجسم ، وكانت النتيجة الحتمية أن بات الناس يعيشون ، وما هم بأحياء . خلق لهم العقل حالة وأجبرهم على الاستقرار فيها دون تغيير أو تبديل ، وهذا أبعد ما يكون عن الحياة الصحيحة . ونحن نشاهد أثر ذلك في فشل كثير من الزيجات في عصرنا هذا ، لأن حبنا في الحقيقة إنما هو وليد العقل لا دخل للجسم فيه ، وأما الزواج الحقيقي فأساسه الجسم وعماده الرغبات الجنسية ، ولذلك نجد أن زواج العقل الحديث مآله إلى فشل ثم إلى طلاق .

ونحن لا ننكر أن كثيراً من علماء علم النفس أمثال يونج Jung وفرويد Freud ولجوا باب اللاشعور قبل لورنس وحاولوا تحليله ، ولكنهم اتبعوا في ذلك الطريقة العلمية التي تعتمد قبل كل شيء على العقل ، وهذا حظهم بمض الكتاب المصريين أمثال أندريه جيد André Gide وألدس هكسلي Huxley فلم يتركوا باباً دون أن يلجوه ، فكتبوا في اللاشعور ، ولكن كان رائداهم في ذلك العقل والتفكير ، حتى تجاربهم العلمية أعطوها صبغة عقلية محضة ، ولذلك فشلوا حيث نجح لورنس لأنه لم يعتمد على غير تجاربه الخاصة التي ترجمها إلى لغة جسمانية صريحة أثارت المجتمع وأقامته ضده .

حتى في خلق شخصيات رواياته ، لم يستلهم سوى غرائزه وحواسه . وكان هذا سبباً في عجز كثير من الكتاب المقلين

كسر قيود العقل والتحرر من ربقة استعباده ، حتى توفق إلى الاستماع إلى رغبات الجسم ثم العمل على تحقيقها ، وبهذه الطريقة تستكمل الحياة الصحيحة الحقة . ويرى لورنس أن رغبات الجسم لا تكذب قط ، فالجسم هو الذي يشعر بالجوع والعطش ، وهو الذي يشعر بالفرح والحزن ، وهو الذي يشعر بالحب والكراهة ، وهو الذي يشعر بالمطف والنفور ، وهو الذي يشعر بالحنو والصدا وما إلى ذلك من المواقف التي مرجمها الجسم وحده ، وأما العقل فلا تتمدى وظيفته تسجيل هذه المواقف والاعتراف بها .

وإن حياة الجسم لتظل طبيعية حتى يتدخل فيها العقل ، فيحدث الانقسام ويبدأ التفريق بين الخير والشر ، وهذا أساس شقاء البشر ، وهذا الانقسام هو نتيجة لرغبة العقل في تقييد الجسم والحد من حريته ، فهو لا يريد أن يتركه يشعر كما يشاء أو يطلب ما يريد ، ثم لا يقتصر الأمر على ذلك ، بل يحاول العقل أن يمل على الجسم طائفة من المواقف ينمها له بأنها الخير ، ويحرم عليه طائفة أخرى على اعتبار أنها الشر ، وبمعنى آخر يحاول العقل أن يبسط علينا سيطرته ثم يتحكم فينا بعد ذلك فيفرض علينا ما يجب أن نشعر به وما لا يجب أن نشعر به ؛ ثم بعد ذلك يفرض علينا كيف نشعر بهذه المواقف التي اختارها لنا ، ويستمر العقل على مسلكه هذا كلما أنس من الجسم خضوعاً وخنوعاً ، حتى يأتي الوقت الذي تموت فيه كل مشاعر الجسم وعواطفه ، ولا يبقى سوى هذه المواقف المصطنعة المتكلفة التي صاغها لنا العقل وخدع بها الجسم . وقد مثل لورنس شخصية الرجل الحديث في روايته المصادرة « عشيق لادى تشارلى » تحت اسم كليفوردي الذي يدعو إلى المواقف المنظمة التي يرسمها لنا العقل ، ويدعو كذلك إلى استئصال المواقف الجائشة الطبيعية التي لم يتناولها العقل بالتهذيب والتشذيب .

ويرى لورنس من كتاباته سواء في ذلك رواياته الطويلة أو قصصه القصيرة ، أو مسرحياته الأربع ، أو كتب أسفاره ، أو مجموعة أشعاره ، إلى فك قيود الجسم وتخليصه من الأغلال التي أصبح يرسف فيها منذ أمد طويل . ويرى لورنس أن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه الغاية لا تكون إلا بترك الجسم يستمع إلى أحلامه ، وينفذ رغباته دون أن يكون عليه من العقل رقيب أو محاسب ، وبمعنى آخر يريد لورنس أن يوقظ الجسم من سباته العميق ، أو يبعثه من رمنه بعد أن دفنته المدنية الحديثة ووارته

إلا أنه موجود حقاً في الحياة ، ولورنس إذ يكتب بصور لنا الحياة كما يراها هو لا كما اتفق الناس على أن تكون .

وثمة صعوبة أخرى تترضض بعض قراء لورنس وتقدمهم عن فهمه أحياناً ، ألا وهي اللغة التي يستعملها في نقل فلسفته غير المألوفة لنا . فلورنس وهو يترجم مجاربه في صورة كلمات يحاول جهد طاقته أن يشرك القارئ في نفس التجربة التي مر بها هو وينمره بها كأنها تجربته الخاصة ، وطريقه إلى ذلك هو صوغها في لغة تتفق والتجربة تماماً . فهو يبذل المستحيل كي ينتقى من الكلمات ما يناسب كل إحساس جسدي ، كما يحاول في الوقت نفسه أن يتخير التعبيرات التي توافق كل فعل متعكس يصحب هذه الإحساسات الجسدية . وقد وفق لورنس في عاقلاته هذه كل التوفيق مما وضعه في مصاف كبار اللغويين وقادتهم .

ولم تكن مهمة لورنس بالسهلة اليسيرة ، ولكنه ما كان ليأس أو يستسلم ، ولم تقف مجهوداته الجيالة عند حد إيجاد الكلمات التي تعبر أصدق التعبير عن الإحساسات الجسدية والمواطف العميقة التي تصحبها بل عمد أيضاً إلى خلق لغة خاصة للشعور . وهذه وإن بدت غريبة غير مألوفة لدى القارئ عند أول وهلة إلا أنها لو درست ووفيت حقها من الدراسة لوجد أنه يغيرها لا يمكن التعبير عما أراد لورنس التعبير عنه . ونقطة أخرى يجب أن تلفت نظر دارس لورنس إليها وهي تمت إلى موضوع لنته بسلة ، هي أن هناك بعض كلمات يجب أن تفهم كما فهمها لورنس نفسه لا كما أجمع الناس على فهمها ، ومن أمثال هذه الكلمات : « الظلام » و « الكهرباء » و « الرجل » و « للثل الأعلى » و « النيرة » فهذه الكلمات وأمثالها استعملها لورنس وقصد منها غير ما اتفق الناس عليه

ويبوء بالفشل كل من يحاول أن يستخلص من كتابات لورنس وفلسفته طريقة ثابتة للحياة على اعتبار أنها المثل الأعلى ، وذلك لأن لورنس كان عدو الاستقرار اللدود ، وكان يعتقد أن كل محاولة لخلق طريقة يعيش الإنسان على متوالها طول حياته هي الخطأ كل الخطأ ، بل هي الموت بعينه وإنما في صيغة أخرى . فلزام على الإنسان أن يتغير ويتلون حسب مقتضيات الأحوال لا أن يعيش على وتيرة واحدة . ويقول لورنس في أحد كتبه : « لا يجب أن تبقى الوصايا الدينية ثابتة دون تنوير . بل يجب أن تذبل وتندوى وتموت كما تمفل الزهور تماماً ، فهي ليست أفضل

عن فهم لورنس وإدراك فلسفته ، ولكنهم لم يترددوا في الاعتراف له بقصب السبق وتفوقه عليهم في مضمار العبقرية والنبوغ . فنرى صرى Muryu صديق لورنس الحميم أثناء حياته وعدوه اللدود بعد مماته يقول في كتابه المسمى « ذكريات عن لورنس » : « إن لورنس من التجارب ما لا طاقة لنا على فهمه أو إدراكه . ولم يكن أصدقاؤه يستطيعوا أن يجاروه أو يسبروا معه جنباً إلى جنب نظراً لأن ما يراه هو سهلاً بسيطاً يندى على أفهام الكثيرين ويصعب فهمه » . ثم يقول هكسلي في أحد كتبه عن لورنس : « إن صحة الإنسان للورنس عبارة عن اشتراكه وإياه في مناصرة استكشافية يرى فيها الإنسان كل ما هو جديد عليه . وذلك لأن لورنس يعيش في عالم غير عالنا ، ويرى ما لا نرى ، ويستخلص مما يرى ما نعتجز نحن عن استخلاصه . والحياة في نظر لورنس ما هي إلا دور نقاهة طويل يشمر فيه الإنسان وكأنه قد خلق من جديد في كل يوم وفي كل لحظة ... ولورنس يعرف كل شيء من كل شيء ، فهو يعرف الشجرة وكيفية ، والزهرة وأصلها ، والقمر وما يحيط به من إلهام وغموض ، وفي مقدوره أن يتقمص جسم أي حيوان ثم يتحدثنا بإسهاب وتطويل كيف يشمر هذا الحيوان وكيف يحس وكيف يفكر »

وهناك نقطة أخرى يجار كثير من القراء في فهمها ، لأنها غير مألوفة لديهم ، وهي أن شخصيات روايات لورنس سهلة الانتقال من الفقيض إلى النقيض في أقصر وقت ، فمن اليأس إلى الأمل ، ومن الحزن إلى السرور ، أو من الغضب إلى الرضا ، ومن الانفعال إلى الهدوء . وهذه الظاهرة وإن كنا لا نلاحظها في حياتنا العادية إلا أنها موجودة حقاً بين الشعراء والفنانين . ولما كان لورنس نفسه شاعراً فناناً فقد عمد إلى خلق بعض نواحيه على شخصيات رواياته بأن خلق فيهم هذه الحساسية المرهفة . ولورنس ليس من أولئك الذين يرون حداً فاصلاً بين الحقيقة والخيال ، بل يراها متداخلين تداخلاً تاماً ، وهذا ما عني بتصويره في رواياته نقلاً عن الحياة . ففي رواياته « سانت مور » و « قوس قزح » و « غرام النساء » لا يكاد القارئ يبين الخط الذي يفصل بين الحلم والحقيقة ولا يسهل عليه أن يتعرف من أين تبدأ الحقيقة ومن أين يبدأ الحلم وأين ينتهي كل منهما . وهذا الرأي وإن يكن غير مألوف في روايات كتاب العصر الحالي